أحراش أدبية

.. كيف جئت ؟؟ كم اشارة مرور عبرت الى هذا الشارع ؟ فجأة انتبهت الى قدمي فوق رصيف شارع سليمان . آخر طريق أذكره جيدا سور الازبكية ، وقفت عند باعة الكتب . لم أحد كتبا جديدة ، عندما تجاوزت منتصف السور واقتربت من مدخل الحديقة استنشقت بقوة رائحة فول سودانى. دخان يتصاعد من مدخنة قصيرة ، وقفت خلف بائعة الفول . كتمت أنفاسى. يد خشنةقاسية تقبض قلبى . انحناءة الظهر . الطرحة السوداء . درت حولها . رفعت وجهها وقالت فول يا بك ؟. خاب أملى عندئذ . شعرت بحنين ، فى دقتها وشم أحمر مثلث باهت كأمى تقارب الخمسين . أمى ليس لها شهادة ميلاد ، سألتها .. كم عمرك يا أمى ؟ لا أعرف . قلت كيف؟ قالت عندنا فى البلدة لا تبلغ العائلة عن وليدها فيبقى بلا شهادة ميلاد . أى حنين ملأ نفسى لهذه المرأة بائعة الفول ؟ لو سألتها من أى بلدة أنت ؟ كدت أقول لها اتعرفين انك تشبهين أمى ؟ أطفأ نور اعلان أحمر فوق واجهة متجر ثم اضاء . فحسست حيرتى . آه لو معى قرش زيادة عن حاجتى لاشتريت منها.. ضحكت بنت تمشى خلفى . توقف شاب يتأبط ذراع فتاة أمام متجر ، عبرت اشارة المرور، صاح الجندى.. اسرع.. اسرع .. وصلت الى الرصيف ، ولم اعتقد أنها تبيع الفول ؟ أى شئ تبيعه اذن ؟ التين الشوكى ؟ وهل تحتمل أصابعها شوك التين وانتزاعه آخر الليل بملقاط ؟ لا أظن . ربما تبيع البليلة أو لعمة القاضى . الحلوى امام مدارس الاطفال .. ياه .. هذه أشياء كانت تعدها لى أنا فى طبق أو اثنين ، ولم لا تعدها للناس ؟ بدلا من واحد عشرة ، آه لو يوجد سجل يحوى أسماء البائعات كلهن ؟. ولو يوجد سجل كهذا لذهبت اليه وبحثت فيه عن اسمها وعرفت أين هى وأى شئ تبيع ؟. من أيام .. قمت مبكرا .. صباح الشتاء عامق.. البعث فى الصمت صفير راديو حاد . لم تعمل محطات الاذاعة بعد . مرت فترة ودقت ساعة بعيدة ست مرات رزينة باردة عميقة كالشتاء ، عند هذه الدقات استرد حريتى ، قفزت من السرير ولم أحدث ضجة حتى لا أوقظ صاحبى الراقد بجوارى ، خرجت ، الجو بارد ، برودة ثلجية تلسع الاطراف ، اتقى وجهتى وأذنى . قميص خفيف ، زمان .. عندما كنت أقصر من طولى الآن بخمس عشرة سنتيمترا أو أصغر من عمرى تسع سنوات. كانت تقف بجسمها اليدين القصير ..

لا تخلع ملابسك الثقيلة .. الدنيا برد؟

فى السماء غمام رمادى متلاصق معتم، تمم البيوت الصفراء عارقة فى ضباب.

لم أر صبايا أشد ولا أكثف من هذا الصباب المحيم فوق القاهرة في الصباح، ثقيل .. لزج كالليل ، من بعيد أصوات محنوقة مرتجفة ، فكرت بأي مدرسة أبدأ ؟ وبالليل قبل نومي قال زميلي ..

ـ ابحث عنها أمام أي مدرسة ربما تبيع الحلوى للصغار .. أو البسكويت . يوجد عدد كبير من المدارس في الحي ؟

.. أظن سبعة .. تسعة .. معظمهم مدارس ابتدائية وعلى العموم أسأل المدارس هنا في حواري وأزقة .

الشارع خال في الصباح الا من بعض العمال يسيرون بسرعة . وعندما كنت أعمل في ذلك المصنع، تبدأ نوبة العمل في السابعة صباحا بالنسبة للسيدات، وهل هن سيدات ؟ ها سيدات ؟ أما الرجال فالسادسة والربع أقصى حد . بعدها الدقيقة بربع يوم ، لم يخصم مني مليما واحدا . أمي توقظني في الصباح على الرغم من البرد ، برد الشتاء، عربات الفول تقرقع عجلاتها الخشبية فوق بلاط الشارع المصلح، بعض الفوانيس مضاءة، نورها يسيل ، شريط رفيع مختنق من الزيت ، زمان في يوم الجمعة بالذات أنام حتى التاسعة ، تتركني أنام ، عندما أصحو أظل في الفراش مغمض العينين . أفكر في أشياء وأشياء ، أشعر بها تقترب مني ، تمد يدها لتلمس جبهتي ، تتراجع وتهمس ليتم ويشيع نوما ، تعود الى جلستها ، آه يا أمي .. آه يا أمي لو رأيتهم في السجن كيف تنهال عصيهم علينا لنقوم في منتصف ليل الثلج ، أي شيء تفعليه وقتئذ ؟ توقفت فجأة ، مرقت سيارات عديدة ضخمة وجلس شبان على سور حديدي أمام مطعم ، يعلقون حول أكتافهم « بلوفرات » صوف ثقيلة ، شعرت بوخز البرد في جسمي، اهده طريقتكم لارتداء الملابس ؟ مد شاب يده وعمر فتاة ، نظرت اليه بغضب بتهتك ، كم الساعة الآن ؟ لو معي ساعة لن اسأل بتتا فسطري لن يأت لي بالرد، رجل أنيق .

ـ كم الساعة من فضلك ؟

ـ آه ؟ آه .. سيكس أندهاف ..

مصري ؟ كأنه يقول لي يابن الكلب.. آندهاف ؟ لو عندي القدرة على الضحك لاستلقيت على قفاي ، والله حول رقبته سلسلة ، لم يبق الكثير على القهوة ، لن أفكر فيه .. كيف تعثر على أمك وآلاف منه موجودون ؟ القهوة ، لم تبق الكثير عليها ، دقت الساعة يومها سبع دقات، درت على المدارس في الحي واحدة بعد الأخرى ، بدأ الطريق يزدحم بالصغار ، جاء بائع كشري ، وبائع حمص شامي ، التف حولهما الصغار ، رحت أرقب وأبحث ، أقتربت من تلميذ صغير أمام مدرسة أخرى في حارة بعيدة ..

يا شاطر .. الا تأت الى هنا بائعات؟

أي بائعات ؟

نساء عجائز يبعن أي شيء .. ليس عجائز تماما .. حلوى .. دوم . ألم تر واحدة قصيرة في وجهها وشم أخضر.

رفع رأسه . قال ..

.. هناك واحدة صائمة منك كالتي تصفها ؟.

حقق قلبي كما لم يحقق أبدا ، ملامحه بها شيء .

.. نعم ابحث عن واحدة مثلها ..

قال الصغير ..

.. في هذا المكان .. بجوار سور الجامع .. هذا السور الحديدى .. كانت تجلس امرأة . أتقول أنها قصيرة؟ كانت طيبة ولا تضحك على أحدنا وتوصى بى .. و .. و ..

.. اين راحت .. اين راحت .. اين ؟

.. اين راحت ؟ طردها شيخ الجامع مرة .. رجعت ثاني يوم وجلست هنا مكان وقوفى .. نعم هنا .. وعندما رجعنا من الاجازة الم نجدها .. لكن والله سألنا بعضنا عنها .

.. الم ترها فى شارع .. ميدان .. حارة ؟

حارة ؟

قال عم اسماعيل بائع الفول ..

.. حارة الوطاويط .. هل تعرفها ؟

.. طبعا مررت بها كثيرا ..

.. رأيت هناك امرأة ترتدى ثوبا أسود تجلس باستمرار ..

حارة الوطاويط ضيقة مبلطة ، قال صاحب دكان الورق الواقع بالقرب منها .

.. فى هذه الزاوية رأيتها كثيرا .. صامتة مغمضة العينين ترتدى دائما ثوبا واحدا لا تكلم أحدا ولا يكلمها أحد .. ويقول محمد قراش هذه المدرسة انه سمعها تبكى فى ليلة سوداء هطلت فيها الامطار واظن أننى لم أرها بعد ذلك . سألت بأسى . بعد هذه الليلة ؟ قال نعم . الا تعرف أين راحت ؟ قال لا أدرى ربما تحس حول سيدنا الحسين فالمجذوبات يتمن هناك باستمرار ، قلت وهل بدت عليها علامات المجاديب ؟ أجاب بصراحة والله أبدا .. لم تذكر شيئا أبدا .. صمت لحظة وقال .. لم تسأل هل أنت صحفى ؟ قلت أبدا .. أبدا لست صحفيا .. درت حول سيدنا الحسين . أين أنت يا أمى ؟ نساء يلبسن ثيابا بيضاء وخضراء . سألت عامل مقهى ، قال لا أعرف . سألت خادم الجامع ، قال لم أرها . سألت ، درت .. الصمت .. هكذا ؟ أهكذا ياأمى ؟ تدهبين ولا أدرى أين أنت ؟ خطاباتك وصلتنى بالعدد هناك . ثلاثة . احفظهم فى جيبى ، آه لو أعرف من كتبهم لك؟ خمس سنوات ظللت أرى المعرب فيها أصفر كلون الرمال . السجن بصقة رجل مسلول فى صحراء واسعة مخيفة . فى وقت الراحة أجلس ورأسى بين يدى . الشعور بالخوف عليها يأكل نفسى كل يوم كصودا كاوية حارقة . أى شىء تفعله الآن ؟ كيف تعيش ؟ كيف تفكر ؟ أمى التى لو وضعتها على رأس الحارة لا تعرف طريق العودة الى البيت ؟ ويقول زملائى لا تشغل بالك ألم تقل انها تعرف حياكة الثياب؟ ربما دهست الى أقاربها . وتشرق الشمس مختفية وراء الأفق . يسودنا سكون كئيب ، يجلس فوقنا الصمت ، الورقة لا تزال مدلاة من يدى ، يرتفع صوت زميل من خلفى ، مؤلما خافتا ، أتعرف أشعر بها كأنها أمى لم تكن لى أم طوال حياتى ان قلقى على أمك لا يقل عنك أبدا .. اسمح لى ، يقول آخر ، اننا نحبها بعد خروجنا لا بد أن نرها .. آه .. لم أجدها ، آه لو تعرفون أين هى الآن ؟ فى أى عمارة ، شقة ، حجرة ؟ مصنع ؟ فى هذه المدينة الهائلة المتوحشة

الضيقة ؟ فوق أى رصيف ؟ جدار ؟ **بلاطة ؟ تأكل ؟ تشرب ؟ تشعر ؟** تعرف أننى خرجت ، ابحث عنها وعن عمل لى ، لكن لا بد أعثر عليها ، لا بد ، لا بد ، ستصل اليك مهما كان الزمان وفى أىمكان، سأسند رأسى على قدميك، تعبثين بأصابعك فى شعرى ، الشمس فوق السطح ، حولنا الدجاج ، اى أيام **بعيدة هذه ؟؟** دافئة، مقبضة حزينة ، لا تخلو ساعة من صوتها ٠٠ آه ٠٠ هل أصدق نفسى ؟؟ اصدق اننى تشاجرت معها فى يوم ٠٠ بل فى يومين ٠٠ اكثر

من مرة ومرتين وبكيت ، ضربتنى ، بكت هى عندما خرجت هائما على وجهى الى باب النصر متصورا اننى سأصل عند شواهد قبوره الى نهاية العالم ، خرجت ورائى ، عادت بى الى البيت ، أنا لا اعرف الآن كيف أجدها وأرجع بها ، آه لو رأيتك فجأة تدبين وسط الناس حتى لو شحاذة لو أى شىء فقط أعثر عليك أى فرحة ؟؟ أى فرحة ستغمر وجهك الطيب؟ ربما ٠٠ ربما لحقها العمى فى هذه السنين ؟٠ ستشعر بى؟ ولو٠٠ ستشعر بوجودى ٠٠ عندما عبرت ميدان الحسين، لم أصدق اننى أعيش ، لم أر شيئا ، اصوات الحارات وهن يتحدثن معى ، اقف أمام الحجرة التى ضمتنا ، شعرت بما حدث عندما فتحت باب غرفتنا شابة صغيرة ، أى شعور مرقنى ؟ فانقطاع الخطابات سنين تدبر التدبير ٠

٠٠ امى ٠٠ أين أمى ٠٠ كما تسكن هنا ؟٠

٠٠ انتى هنا من سنين ٠٠

تلفت حولى ، ربما نسيت البيت ، لكنه هو ، هرعت الى أسفل ، خرجت جارتنا القديمة روحية البيت اذن هو البيت ، المسكن والحجرة والركن لكن أمى ٠٠ أمى ليست فيه ٠٠

٠٠ آخر مرة رأيتها عندما جاء بعض الجنود وفتشوا البيت بعد ذهابك بشهور وسمعتاها تبكى ولم يخرج احد منا فكلنا نخاف منهم كما تعرف ولم نسمع صوتها بعد ذهابهم ٠٠

٠٠ ألم تريهم عندما نزلوا ٠٠ ربما اخذوها معهم ٠٠

٠٠ لا نظرت من وراء النافذة بعينى كان معهم صاحب البيت وفى الصباح

طلعت الى السطح ولم اجدها .. كان الباب مفتوحا ..

الباب مفتوحا ..

.. والاثاث ..

.. يا عيني عليها .. وهل بقي أثاث كسروا السرير وطردوها أكثر من مرة.. بعيني رايتها تنام على بلاط السطح واحدتها عندي اكثر من ليلة .. الاثاث؟ باعت منه جزءا وتكسر منه جزء .

الاثاث ؟ ضربتموها .. ضربتموها ؟ الرقيقة.. البسيطة.. الطيبة القلب .. طردتموها ونامت فوق بلاط السطح وصاحب البيت الجبان .. اتعرفون ما الذي جرى لها ؟ اتعرفون ؟ هذه تحتمل ضرب ؟ جسمها خلق للضرب ؟ تفجر طوال عمرها بأن أبي حتى موته لم يرفع في وجهها كفا، لم يضربها بعصا وتجيئون انتم لتضربوها وأنا أعرف ضربكم .. ياه .. كيف احتملت ؟! كيف بكت ؟! كلكم السبب .. آه لو أعثر عليها لأعوض لها ما فات .. طبعا اردت يا أمي كبرا على كبر .. في يوم تمددت فوق السرير بعد عودتي من العمل . اعددت لي الطعام ، أي طعام اعددتيه لي يا أمي ؟ وضعته فوق السرير . جلست بجواره صامتة ، أشعر بنظراتها تطول مدة ، تتنهد ثم تطرق برأسها ، يصرخ طفل في الحارة ، تصيح امرأة تنادي ابنها ، ترفع أمي عينيها الى السقف ، يتبعث صوت راديو من بعيد ، في أيام الغسيل تغني ..

.. أدور على راح مني ..

أدور على راح مني ..

مرة واحدة سمعتها تغني « على بلد المحبوب وديني » ، لم تغسل أبدا في أيام أجازتي .. عدت مبكرا مرة ولم تكن انتهت من تنظيف البيت . رأيت وجهها أصغر شاحبا وعطستي وجهها برزتا .. ياه .. لم تريحين نفسك ؟

ضحكت وكلما أنظر اليها لا أشعر انها غاضبة أو حزينة . كأنها تفكر في اشياء حلوة بسيطة صغيرة ، كان مصباح صغير يضيء وجهها ، يومها أدركت أن امي كبرت ، لم أشعر بذلك مطلقا من قبل ، أحسست أني وقعت على اكتشاف هائل مريع ، أمي كبرت ؟ أعوام وأعوام .. وخلال السبع الخمسة .. كم زادت؟ كيف أصبحت ؟ وجهها ؟ كل شيء يتغير، وجهي به آثار جروح . هل سأعرفها. هل سأعرفها أم هي؟ قلب الأم دليلها.. دليلها ..

.. انتبهت الى أني لم أحد نفسي من لحظات طويلة ، دفعت الهواء الى صدري ، عضضت شفتي بقوة ، وهؤلاء الناس ، أيعرفون أني أبحث عن أمي ؟ يضحكون .. اضحكوا يا ناس سليمان، السبب .. السبب .. اكره كل ما في هذا الشارع وما يحيط به من شوارع حتى العطر الرائف الذي يملأ الهواء ، أنوار ميدان التحرير تبدو من هنا ، أين هذه القهوة التي يجلس عليها الموظف ؟ صاح بائع الجرائد .. سألته عنها ..

ـ أمامك على الرصيف المقابل ..

لم أعبر الى الرصيف المقابل ..

لا زلت أقف على الرصيف المقابل للرصيف المقابل لـ .. ماذا ؟ .. ارجع يا افندي خطوة .. صاح عسكري المرور وبعد أيام وقع ضابط تحت عربات. زميل لك وصفق الناس واندفعوا ،

اندفعت معهم .. تعيرت ؟ وأذا زادتها السنين كبرا فكيف أصبحت ؟ ستزداد طيبة ، تعنى بى أكثر ، تغسل قمصانى أحسن . تقتل القمل وتطرده حتى لايقلقنى فى نومى ، تبحث لى عن روجة ، هذا ما سيصيبها من تعيير . آه يا أمى .. آه لو حلقت فوق البلدة كلها ، اصرح واسأل ليعرف الناس أن أعز شىء عندى ضاع فيبحثوا معى عنها ويسألون بعضهم، فى القرى، فى العيطان ، البلاد، يجدونها .. أمك هاهى ، أصحيح لا يعرفون أين؟ الا تقول وجوههم انهم يعلمون ؟ ألم يقل الصبى أن بائعة طيبة لم تضحك عليه أبدا كانت أمام المدرسة ، وحارة الوطاويط ، أيعرفون ، ايعلمون ؟ اذن لماذا لا يتكلمون ..

.. **رائحة الصباح** تحمل الى صدرى الأسى، العاشرة وماقبلها، ادوح بشوارع المدينة ، الشمس لها طعم ، خطوات الناس ، مشيهم ، العربات ، مداق مر عندى لم ؟ لا أدرى ، ركبت **السيارة** ، **المحصل** يصيح بلا انقطاع ، سألت عن عمل فى عدة أمكنة وأخيرا نزلت فى مصر القديمة . ذهبت الى شون الغلال ، **الفول** والسمسم والذرة والقمح ، هنا تجار من بلدتنا ، كانت أمى تذكرهم دائما ، ربما عرفوها بعد أن اختطفت من حياتها ، نظروا الى شعرت انى نحيف وتألمت ، فارجحت المراكب فوق النهر، تناثر رذاذ خفيف وبدا الماء أسودا داكنا صرخ عامل صعيدى من فوق صارى . قال التاجر.

.. **يا ساتر ولم تجدها حتى الآن ؟**

..جئت اليكم ابحث عنها .
.. لم نرها .. لم نرها ..

نظرت اليهم . صامتون . شعرت انهم يكذبون . ان لم يروها فهم لمحوها مرة ولو صدفة على الاقل . احسوا بها ولو واحد منهم . واحد . هزوا رءوسهم العمة وقالوا ..

.. ياحسارة .. بنت ناس ..

عندما قمت قال اكبرهم الشيخ فرج ..

.. بحثت عنها فى المستشفيات ؟؟

مضيت . اصوات العمال الصعايدة تتصاعد . يحملون المركب بأحولة القمح والذرة . مشيت حتى بقايا بوابات القسطاط . ثم فم الخليج . ركبت الأتوبيس وسار بمحاذاة النيل . تذكرت موطفا يسكن بالقرب من باب اللوق . أمى رددت اسمه كثيرا أمامى من بلدتنا. صعدت الى مسكنه . فتحت لى الباب فتاة بنظارة طبية . قالت بابا غير موجود . قلت اين استطيع العثور عليه » . بالليل فى هذه القهوة ..

مزدحمة . تنعقد فوقها سحابات الدخان . لا بد ان أجده . لست أدرى ايعرفنى أم لا » سأطلب منه مساعدتى فى البحث عن عمل . اسمه يوسف وموظف .

الشيخ فرج تاجر الغلال الكبير قال اسأل عنها فى اقسام البوليس ..

حارتنا روحية تلفتت حولها ومصمصت شفتيها . جاء جنود وفتشوا البيت . سمعتها تبكى . فى الصباح طلعت ولم أجدها .

روحية لم نجدها واسألهم عنها ؟؟ لو شخص آخر .. يجوز . اما انا ؟؟ يساعدونى انا ؟ يجدون لى أمى أنا ؟ ضابط يبحث معى انا «كيف» من أبعدنى

عنها من سنين ·· سنين ؟ أبدا ، أبدا ، أبدا · آخر الدنيا ولا البوليس · أول الدنيا ولا البوليس · ملا نفسى انقباض مفاجىء · اربعش جسمى · شتاءنا البارد يثبت وجوده · أمس سقط المطر فى الصباح عبرت كوبرى قصر النيل · نظرت ناحية مبنى التليفريون · فى السماء سحابة هائلة معتمة وضخمة لها طبقات فوق بعضها · رحت أتأملها · منظرها كالكرتب · مشيت فتحركت · وقفت عادت الى الثبات · ومن خمس سنوات لم اسمع صوت سقوط قطرات المطر فوق البلاط · تركت حارة الوطاويط الى أين ؟ جبل يعصمنا من الماء · أى ماء اى جبل يعصمها فى هذه المدينة » نسيج العنكبوت · زمان · سقط المطر مرات ومرات · تبعث رائحة طلاء الجدران · تهمس أمى · أخاف ان تتسرب الماء من السقف · السقف قديم وعروقه خشبية اصطدم بكتفى شاب نقلت الكتاب من يدى اليمنى الى يدى اليسرى · درت فى المقهى · أكره رائحة الدخان · نظرت الى كل الجالسين حول المناضد · أين يوسف اين يوسف ؟ اقتربت من عامل المقهى

ـ يوسف محمود الموظف ؟

ـ لم يجىء الليلة ··

خرجت متمهلا ـ ضحك رجل بدين له كرش · لماذا لم يحضر ؟ ابنته قالت له ؟ ربما كان موجودا فى بيته ساعة سؤال عنه · لم يهرب منى لم توقعت · يهبط الليل سريعا ثقيلا عندما يجىء اشعر بروحى تتسلح منى · من التاسعة الى السادسة · لا استطيع أن أحدها حتى لو دارت عى تبحث عنى · سابقى وحيدا فى السرير حتى يرجع صاحبى من نوبة عمله بالمصنع وينام · وقد لا أنام · وفى الفجر يجىء حارس الليل والقمقم · يوقع فى بطاقتى ثم ينصرف لا أعرف أين هى؟ يروح الناس ويجيئون ويضحكون · تحتك الأيدى بالارداف · مخلوقات شارع سليمان باشا · كانوا بشرا · لا يهمهم أن يعرفوا · عبرت اشارة مرور · ادركت ان الضوء لا زال لا زال أحمد لم اتوقف فى الصباح قال زميلى ·

ـ أخاف ان اصارحك بأفكار تدور فى مخى ·

ـ قلها ·· ما الداعى الى الخوف ؟

ـ لم تتوقع انها يعنى أقصد · ربما

ـ ها ·· ماتت ؟

ـ ارجو ألا تغضب منى ·· ارى اصرارك واصرارنا معك لكن أخشى ضياع مجهودنا ·· اطرقت عندما توقظنى فى الصباح تلح على فى النهوض الافطار المعد · مع السلامة العسيل والغداء · الجو حر رفعت رأسى · نار الموقد تزداد اشتعالا · فى الدور العلوى صاحت أم تنادى طفلتها المصروف تستيه قام صاحبى وقال ·

ـ هل ستخرج الآن ؟ انتظر قليلا اما انا فساخرج · ميعاد عملى يقترب سأسأل قبل دخولى المصنع ·· فعندنا عجائز ·· ما أكثرهن !!